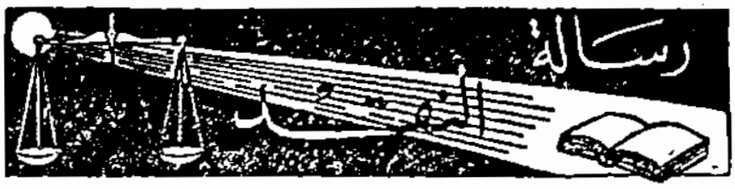

أين المفـــر

تأليف الأستاذ محمود حسن اسماعيل

بقلم الأستاذ أنور المعداوى

شاعر ... كلمة أقولها بكل مايحويه مدلولها من معان يدخل فيها الطبع ، والموهبة ، وسعة الأفق ، وقدرة الجناحين على التحليق ؛ أقولها أنا عن صاحب هذا الديوان حين يطلقها غيرى على كل ناظم ، وكل ناحت ، وكل مصنوع .

قرأت له أكثر ما قال من شعر إن لم يكن كل ما قال ، وفى هذه الفترة الطويلة بين إنتاجه الأول وإنتاجه الأخير لم يتغير رأيى فيه .. لقد ظل على مستواه من الشاعرية التى صقلها الطبع وشحذها التأمل ، وغذاها الخيال . ونحن حين نقرر هذا كله ، نقرره بميزان الوعى الفنى ؛ الوعى الذى تعينه مقاييس الذوق والفن على تحديد الأوضاع والقيم .

ولابد من وقفة قصيرة عند تلك الكلمة التى قدم بها الشاعر لديوانه ، وعرض فيها للشعر العربى الحديث فى شتى فنونه وألوانه وكيف تعددت هذه الفنون والألوان على أيدى أصحابها من الناظمين والشعراء .

وكيف تباينت مصائرها تبعاً لما ينال المعادن الشعرية من زيف فى الفن أو أصالة ؛ وقفة قصيرة لأقول للشاعر إننى كنت أود ألا تظهر تلك الكلمة كمقدمة لديوانه ، حتى لا يتهمه النقاد بأنه ، ما كتبها إلا تزكية لشعره وانتصافاً لنفسه ... على الأستاذ محمود حسن اسماعيل أن يقدم لنا شعره لنحكم له أو عليه ، ولا يحق له بعد ذلك أن يقيم الميزان لنفسه ولغيره فى الوقت الذى يقدم فيه إلى النقاد عملا من أعماله الفنية !

هذه لفتة أسجلها قبل أن أمضى فى عرض شعره ، وقبل أن أقول إننا نعانى تخمة فى الشعر وأزمة فى الشعور ... إن نظرة واحدة إلى ما تخرجه المطابع من دواوين الشعر فى هذه الأيام ، تنتهى بك إلى الإيمان بهذا الحكم ؛ الإيمان به كحقيقة ملموسة ، ونظرة فيها التذوق والتمعن تسلمك إلى حقيقة أخرى هي أنك لو رحت تبحث وسط هذه التخمة الشعرية عن آثار أدبية ترضى الفن حين تحفل بصدق الشعور ، لما وجدت غير ثلاثة دواوين هى « أين المفر » لمحمود حسن اسماعيل و « طفولة نهر » لنزار قبانى و « الشروق » لحسن كامل الصيرفى ؛ ونظرة فيها التأمل والنفاذ تقنعك بأن أزمة الشعور عند الكثرة الغالبة من شعرائنا مرجعها إلى أن التجربة النفسية قد تمر بهم فكأنما تمر بفراغ موحش لاتاقى فيه إلا مجموعة حواس معطلة ، لا تستجيب لأحداث النفس والحياة .

أترك هذا لأسجل ظاهرة تلفت الحس الفنى عند قارىء هذا الديوان ، أقصد القارىء المتذوق لا القارىء المجلان ... وهى ظاهرة تتركز فى الحركة النفسية التى تشيع فى الكثير الغالب من قصائده ؛ هذه الحركة النفسية هى « المرصد » الذى يتلقى « الهزات » الشعورية من هنا وهناك ثم « يسجلها » فى بيت من الشعر أو أبيات ... هذه الهزات متفرقة ثم متجمعة تنصهر فى بوتقة الوجدان النابض لتضع بين يدى الناقد نموذجاً كاملا للشاعر الإنسانى ...

محمود حسن اسماعيل فى « أين المفر » مثال صادق لهذا الشاعر ، ولست أجد فى وصف فنه خيراً من تلك الكلمات التى قالها من قبل عن الفن الإنسانى ، وهو أن يكون الفن انعكاساً صادقاً من الحياة على الشعور ، وأن يكون الشعور مرآة تلتقى على صفحتها النفس الإنسانية فى صورتها الخالدة بكل ما فيها من اشتجار الأهواء والنزعات ... هنا تتحقق المشاركة الوجدانية التى تتمثل فى ذلك التجاوب الروحى بين الفن وصاحبه ، وبين الفن ومتذوقه ، وبين الفن والإنسانية بكل ما فيها من اختلاف الصور والألوان .

الشاعر الإنسانى هنا يقف من وراء هذه الأبيات ، وإن شئت فقل من وراء هذه الأنات ... فى « أغانى الرق » :

ألقيتنى بين شباك العـــذاب وقلت لى فن

وكل ما يشجي حنين الرباب ضيعته مني
وهذا جناحي صارخ لا يجاب في ظلمة السجن
ونشوتي صارت بقايا سراب في حانة الجن
أواه يا فني
لو لم أعش كالناس فوق التراب !

جعلت زادي من عويل الرياح وغربة الطير
ومن أسى الليل ووجد الصباح وشهقة النهر
وسقتني ظمآن بين البطاح إلا من السحر
وقلت لي رفرف بهذا الجناح واشرب من السر
والسر في صدري
قيدت ساقيه بتلك الجراح !

هذه كلمات شاعر ينظر إلى الحياة من خلال « عدسة » فكرية مكبرة ، تكشف الطريق إلى كل خفي من شعاب النفس ، وكل تمريجة في منعطف الشعور هي كلمات فنان وإن شئت قل كلمات إنسان ؛ واستمع مرة أخرى لخفقة من خفقات القلب الإنساني ، في لحظة من تلك اللحظات التي تمر لكل نفس ألمتها سياط العذاب ، وألمتها فلسفة الحرمان ... هناك في « مقابر السحر » :

وهفا بالنفس ما يهفو بغصن في يد الإعصار يعول
ثم قالت كيف عن دمي ومنك الدمع يا حيران تسأل ؟
إن أكن فيك سكنت الجسم والجسم تراب يتنقل
فأنا طير بعرش الله لي عش ، وبستان ، وجدول
إنما أبكي لهذا القفص الداجي الكئيب المتململ
لم يجد أي عزاء في وجودي ... كيف يغدو حين أرحل ؟!

ولما طال السير بشاعر الإنسانية ، آمت دموعه وكفر جفنه ، ومن التقاء الكفر بالإيمان انبعث الهتاف الملتاع ، وانطلقت الزفرة المحرقة ، في طريقهما إلى الله .. هناك في «التراب الحائر»

رباه ! ما أنا ؟ ... هل وجدت على زمان الناس سهواً !
سويتني روحاً تمرد ، لا يطيق الأرض مثوى
وأنا التراب ! فكيف صرت هوى وتعذيباً وشجوا !
شرفات غيبك لا يتحن لغير من يبكي دنوا
وأنا إليك ذرفت أيامي فزاد دمي عتوا
ووقفت أحفر للجراح طريقها ... فتمردوا شدوا !

ونقلة أخرى نقف بنا عند ظاهرة أخرى لا تقل عن الأولى استثاراً باهتمام الناقد ولا إثارة لملكته الناقدة ، ونعني بها ظاهرة الرمزية في شعر الأستاذ محمود حسن اسماعيل ... هذه الرمزية هي التي تدفع بعض الناس إلى وصف شعره بغموض العبارة حيناً وجموح الخيال حيناً آخر ؛ والحقيقة التي نقررها أنه لا غموض هناك ولا جموح ، وإنما هو عجز المجالي عن التحقيق في أفق الشاعر ، وقصور إحساسهم عن التجاوب والجو النفسي الذي عاش فيه ، ذلك لأن الرمزية هنا تأتي مطبوعة لا مصنوعة ، وأصيلة لا مقصودة ... الرمزية المطبوعة هي أن يعبر الفنان عن طريق المعنويات ، أما الرمزية المصنوعة فهي التعبير عن الماديات بما وراء المعنويات ، وفي هذا اللون الأخير من الرمزية يكون السخف والدجل والتضليل !

الرمزية في شعر هذا الشاعر تصدر عن منبعين أصيلين : التأمل العميق المنعكس من الحياة على النفس وهو ما يعبر عنه بـ « الاستبطان النفسي » ، وهذا هو المنبع الأول . . أما المنبع الثاني فهو « الفيض الشعوري » المنبعث من قوة الشخصية الشعرية أو رحابة الحقل الشعري ؛ ومن هنا تعلي النهويات الروحية التي تصبغ الشعر بصبغة الرمزية الأصيلة لا الرمزية المتكلفة ، تلك التي لا تهدف إلا إلى الغموض والإبهام ! استمع له يقول في « العزلة » :

صلت بها عيدان لا تعرف الأديان
واستغفرت أغصان لكن بلا ذنب
خيلها حران وتبعها ظمآن
وصمتها ولهان شوقا إلى الغيب
تفجرت أنهار فيها من الأسرار
يجري بها إعصار في عالمي الرحب
وهذه أنفاس في صمتها الوسواس
تدق كالأجراس في معبد القلب
وهذه حيات تسمى من الساعات
كأنما الأوقات غاب نما قربي

هنا لون من الرمزية لا يعجزك فهم مراميه حين تلقاه بشيء

من الرويه وإمعان الفكر ... كل ما فى العزلة من خلجات النفس وخفقات القلب وهزات الشعور ، تلك الانعكاسات المادية المحسة قد عبر عنها فى هذه الأبيات بأشياء معنوية ؛ «فالميدان المصلية» بلا دين ، و « الأغصان المستغفرة » بلا ذنب ، و « الأنهار المتفجرة» من الأسرار ، و «الأنفاس الصامتة» التى تدق كأجراس فى معبد القلب ، و « الحيات الساعية » من الساعات ، كل هذه المعنويات التى تنبع من العقل الباطن يمكنك أن تردها إلى وقع العزلة على العقل الواعى ؛ ذلك الميزان الشعورى الذى يسجل ما فى الوحدة من مظاهر الرهبة والصمت ، والرغبة فى اختراق حجب الغيب ، وبطء النقلة فى خطوات الزمن ، وامتلاء الجو بالأسرار ، واستجابة الوجدان لدعاء مجهول يوحى بالتعبد والصلاة ...

ويمثل هذا التطبيق ينجاب ذلك الغموض الذى يطالعك فى بعض قصائد الأستاذ محمود حسن اسماعيل حين نلقاه هنا أو تلقاه هناك .. فى « عرفت السر » و « نهر النسيان » و « الخريف » و «جلاد الظلال» هاتان ظاهرتان أو ناحيتان ؛ ويبقى أن نسجل ناحية أخرى لها وزنها عند الكلام عن الفن التصويرى فى الصياغة الشعرية ، هذه الناحية تتمثل فى الربط بين أجزاء الصورة الوصفية تتمثل فى الربط الشعورى كما تتمثل فى الربط التعبيرى ... ومن اتصال هذا بذاك ، ومن التوفيق فى اختيار الزوايا وتحديد النسب تكتمل الوحدة الفنية التى تخلق من الصورة الكاملة لوحة نابضة تتناسق فيها الجزئيات فى نطاق المدركات الحسية والنفسية ... هذه الظاهرة تستطيع أن تلمسها فى «الشك» و «نشيد الأغلال» و « خمر الزوال » و « المعبد المرجوم » و « الانتظار » ، وتعال نستمع له وهو يصف لحظة من لحظاته :

انتظر هنا ... وطال انتظارى وهى فى أعينى التفات وذعر
وسـؤال لكل شىء حوالـى وإيماءة لكل طيف يمر
وانتباه ، وغفلة ، وربيع وخريف ، وشيب زهر وعطر
وجناح يهفو ، وآخر يهتاج ومن بين ما يرفان طـير
وأنا سبسب توهج منه لحظاها أيك رطيب وزهر
وهى لا أقبلت ولا عاد منها لشقائى بعودة الكأس خمر

هذا هو الشاعر الإنسانى ، وشاعر الرمزية المطبوعة ، وشاعر الصورة الوصفية الكاملة ، فما هى الفجوات الشعرية التى يتعثر فيها الناقد ولا يستطيع المضى فى طريقه دون أن يشير إليها ؟ .

هى فجوات قليلة ولكنها تعترض سالك الطريق على كل حال ؛ يجدها فى غلبة اللفتات الذهنية حين تخمد الومضات الروحية .. هناك فى « اللحن المقهور » :

ليتنى كنت رياحا تهتف الآباد منها
أنا أهواها ولكن رغم أنى لم أكنها

أنظر إلى هذا التعبير النثرى فى قوله « رغم أنى » ... ألا تشعر هنا بشىء من الهبوط فى الإحساس بالجو الشعرى ؟ ! إن هذا التعبير فى رأيى يصلح لمقالة من المقالات لا لبيت من الأبيات

واستمع له مرة أخرى حين يقول فى « أغانى الرق » :

يا سارق القوت نزعت الحجاب عن هذه اللقمة
ما كنت أدرى فتكها بالرقاب أو أنها نقمة
والجوع إن صاح يصيح الخراب وتصعق الأمة

ألا توافقنى على أن أفق الخيال فى البيتين الأول والثانى أفق شاعر ، وأنه فى البيت الثالث أفق ناثر ؟ ...

وأن القالب الشعرى فى قوله : « وتصعق الأمة » تصبغه صبغة الخطب المنبرية أكثر مما تصبغه صبغة التهويمات الروحية ؟

واستمع له مرة ثالثة حين يهتف فى « الرداء الأبيض » :

عشقت فيك الحزن والسوادا وسمرة الخدين والحدادا
وجد ولا تحت الدجى تنادى يا ساقى الحب أغث لى وجدى

وهنا أيضاً يصدمك هذا التعبير « أغث لى وجدى » ... إنه هتاف ينبعث من قريحة اعتراها الهمود بعد وهج التوقد وحرارة الانفعال !

وتأمل معى هذه الصورة الوصفية لوقدة القيظ ولفح الهجير :

والسنة بيض لهن رطانة يمثل لغاها كاهن لم يتمتم
كأن عفاريت الظهيرة طنبوا خياما على هذا البساط المضرم

إن الصورة هنا تبلغ القمه وتصل إلى مدى الأبداع ، ولكن كلمة « عفاريت » قد أفسدت ألوانها الزاهية !

هذه الـآخذ التى تنتثر فى مواضع قليلة من « أين المفر » ، لا يمكن أن يخلو منها أثر من الآثار الفنية ...

وأعود فأقرر أن هذا الديوان يثب بالشعر العربى الحديث وثبات قل أن تجد لها مثيلا فى ديوان آخر .

أنور المعداوى